بقايا الفِصاح

أعني ببقايا الفصاح طائفةً من الألفاظ التي استفاضت في العامة وأصلها فصيح ، الا انها مع تعاقب السنين عليها تباعد عنها فريق من الكتاب فذهب وهمنا الى انها عامية ، ولهذه الألفاظ على ما أعتقد قوة غريبة في حياتها ، فقد خلفها الماضي وتداولتها العامة ، فلم تفقد شيئًا من حياتها ، على الرغم من اختلاطها بألفاظ أعجمية انحدرت اليها من الأمم التي انبسط سلطانها على هذه البلاد او على بلاد العرب عامة ، ففي كل بلد من بلاد العرب طوائف من هذه الألفاظ ، ولكل طائفة منها حياة قوية ، ولقد عُنيت بها من سنين فاجتمع لي مقدار منها أرجع اليه من حين الى آخر فتنطوي لي أحقاب بعيدة ، فأرى في تضاعيف هذه الالفاظ حياة بلدٍ بأجمعه ، اذ أنها تفصح لي عن ناحيةٍ من نواحي الاجتماع او الاقتصاد او عن معنى من المعاني النفسية أو المادية او غير هذا كله ، ولهذه الألفاظ في الادب منزلة رفيعة ، وسلطان قوي لصلتها بالعامة على تراخي السنين ، ولامتزاجها بألسنتهم ، واذا لزمنا ان نخاطب الناس على قدر عقولهم حتى يكون لكلامنا تأثير في هذه العقول ، فيلزمنا ان نخاطب العامة بألفاظهم التي يأنسون بها ، فالكلمة التي تأنس بها تعمل في قلبك أو في عقلك أو في نفسك غير العمل الذي يعمله ما تستوحش منه من الكلام ، وقد كان سيد الكتاب أي الجاحظ تغلغل الى روح العامة ، فمال الى مصطلحاتهم ، وانبسط الى تعابيرهم ، فما كان ينقبض عن استعمال ألفاظهم في اضعاف كتاباته ، كالمخطراني والكاغاني والبانوان والقرمي والمشعب وما شاكلها ، ولقد ذهب مذهبًا أبعد ، فما كان يستنكر الحكاية عن بعض الناس بقول ملحون ، فانه يرى ان الإعراب يفسد نوادر المولدين كما ان اللحن يفسد كلام الأعراب ، وكان يقول اذا دخلت على هذا الأمر الذي انما أضحك بسخفه وبعض كلام العجمية التي فيها حروف الإعراب والتخفيف والتثقيل وحولته الى صورة الفاظ الأعراب الفصحاء وأهل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المرؤة والنجابة انقلب المعنى مع انقلاب لفظه وتبدلت صورته ، وقال في مقام آخر : وان وجدتم في هذا الكتاب لحنًا او كلاماً غير معرب ولفظاً معدولاً عن جهته فاعلموا انا انما تركنا ذلك لأن الإعراب يبغض هذا الباب ويخرجه عن حده ، الا ان احكي كلاماً من كلام متعاقلي البخلاء وأشحاء العلماء ، كسهل بن هارون وأشباهه .

على أنني لم استشهد بكلام الجاحظ للتحريض على استعمال الألفاظ العامية او على الخروج على قواعد الإعراب في بعض المواضع فما يجوز للجاحظ لا يجوز لي ولا لغيري في هذا الباب فهو سيد اللغة بحذافيرها ، لا تفلت منه لفظة منها ، وانما مدار كلامي على إحياء طائفة من الألفاظ العامية التي لها اصل فصيح ، فها أنا أورد في مقالي هذا فريقًا من بقايا الفصاح التي تدل على بعض معانٍ اجتماعية او اقتصادية أو مادية أو نفسية ، أو غير ذلك ، وأقتصر على ذكر يسير منها لأن المقام لا يتسع لذكرها كلها ، وقد حافظ قسم من هذه الألفاظ على معناه الأول ، فلم ينشأ تفاوت في المعنيين : اللغوي والعامي ، وقسم منها عدّل بعض التعديل ولكن النسبة بين المعنيين مستحكمة على الرغم من هذا التعديل .

* * *

من هذه الألفاظ ما يفصح عن معنى من معاني الاجتماع ، فمن الألفاظ الدمشقية قولنا : فَنَّكتْ فلانة ، بالتشديد ، فقد كانت سيدات دمشق لسنين خلت يسهرن في دورهنّ ، ويجتمع بعضهن الى بعض في هذه السهرات ، فيلعبن لعبات مختلفة كلعبة الترزيز مثلاً او تغني احداهنّ اذا كانت حسنة الغناء ، أو تُضحك رفيقاتها اذا كانت خفيفة الروح ، فاذا كانت هذه الخفيفة قد أضحكت أهل الدار حتى بالغت في اضحاكهنّ قالت رفيقاتها بعد انفضاض المجلس : ان فلانة فنّكت البارحة .

وفي القاموس المحيط للعلامة الفيروزابادي ، وعليه اعتمدت في شرح بقايا الفصاح :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فتكت الجارية ، بحنت ، فأنت ترى ان أصل هذه المادة فصيح ، اوردها الفيروزابادي مخففة ، واستعملت في دمشق بالتشديد ، وبين المعنيين ، اللغوي والعامي نسبة واحدة ، فلا فرق بين معناها اللغوي ومعناها العامي ، ولست أعلم كلمة تعمل عملها في هذا الباب ، فانها خصبة الدلالة ، شديدة التأثير ، ولو خيرت بين استعمال هذه المادة وبين استعمال أخواتها الدالة على معناها لما فضلت عليها واحدة منها ، لشدة حياتها ، وعظم وقعها ، وقد تخرج في بعض الأوقات من الحقيقة الى المجاز ، فيقولون : فتك هذا الشتاء ، أي اشتد .

ومن بقايا الفصاح الدالة على نمطٍ من انماط اللعب قولهم في دمشق : فلان لعبه جماش ، فهذه المادة كنا نستعملها في مدارسنا من ثلاثين سنة للدلالة على تلميذ يلاعب رفيقه فيغلظ له في الملاعبة ، فقد يركله مثلاً ، أو يعضه ، او يهشم له عظماً الى غير هذا من انواع اللعب الغليظ .

فمن معاني هذه المادة في القاموس المحيط : الملاعبة ، فالجمش الملاعبة كالتجميش ، ورجل جمَّاش متعرض للنساء كأنه يطلب الركب الجميش ، فلم يورد الفيروزابادي : لعبًا جماشًا ، وانما أورد المصدر الثلاثي الجمش ، وبين المعنيين نسبة قوية ، فالجمش في اللغة الملاعبة ، وهذا هو معناها عند العامة ، الا ان العامة وضحت طرز هذه الملاعبة وخصصته ، فهي ملاعبة شديدة ، غليظة والأصل اللغوي ليس فيه هذا التمييز ، وفي كل حال المادة واحدة ، ولكنها عدَّل معناها هذا التعديل .

ومن بقايا الفصاح ما يدل على معانٍ نفسية مثل قول العامة : نغش له قلبي ، اي انبسط اليه وأنس به .

وفي القاموس المحيط : وهو ينغش اليه ، اي يميل ، فهذه مادة لم تفقد شيئًا من صلتها بأصلها اللغوي ، فما زالت على معناها الأول ، دون أن يدخل عليها شيءٌ من التعديل .

ومن هذه الألفاظ ما يدل على معان اقتصادية مثل قول العامة : فلان بعزق

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مال أبيه ، او فلانة بعزقت السمن في الطبخ ، وفي الأصل اللغوي : بعزق الشيء أي فرّقه وبدّده .

فهذه المادة حافظت أيضاً على أصل وضعها .

ومن بقايا الفصاح ما يدل على معانٍ مختلفة ، ومذاهب شتى ، مثل قولنا : فرتكها فلان ، أي أفسدها والضمير يرجع الى خطةٍ او الى سياسةٍ أو الى غير هذا ، وفي الأصل اللغوي : فرتك عمله أي أفسده .

فلم يتغير شيء من معنى هذه المادة في أصلها .

ومن كلام العامة في دمشق : العطعطة ، فاذا كان لوالدٍ ولد وترك هذا الولد داره في الليل أو في النهار ، وعاد في منتصف الليل مثلاً فيقول له أهله : أين كنت تعطعط ، على سبيل التوبيخ ، ومن معاني العطعطة في اللغة حكاية صوت الجمّال اذا قالوا : عيط ، عيط ، وذلك اذا غابوا قوماً .

فهنا لم تحافظ العطعطة على معناها اللغوي ، وانما تباعد المعنيان بعض التباعد ، ولكن على الرغم من هذا التباعد قد يكون معنى أصلها العامي نظير معنى أصلها اللغوي ، ثم دخل هذا المعنى تحريف على السنين فضاع الأصل اللغوي وبقي الأصل العامي .

ومن بقايا الفصاح ما يدل على لون من الألوان ، فمن كلام العامة : باخ الثوب ، وهم يريدون بذلك : ذهب بريقه ، وفي اللغة : باخت النار أي سكنت ، فالمعنيان متقاربان ، الا ان العامة عدلت عن حقيقة معنى هذه المادة الى المجاز فيها ، فالنسبة بين ذهاب بريق الثوب وبين ذهاب لهيب النار واحدة ، وقد وردت هذه المادة في شعر نهشل بن حرى :

ويوم كأن المصطلين بحرّه وان لم تكن نار وقوف على جمر
صبرنا لها حتى تبوخ وانما تفرج ايام الكريهة بالصبر

وقد رأيت قبل أن اختم هذا الاستشهاد ان أذكر مادةً عريقة في العامية وهي :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

العراضة ، والمقصود بها اجتماع فريق من العامة في يوم عرس ، أو في يوم فرح ، أو في يوم عيد ، أو في أيام انقلاب سياسي ، كالانقلاب الذي جرى في دمشق سنة ١٩٠٨ ، ثم جولان هذه العامة في البلد ، يهزجون فيه وأمامهم وصاف يصف وهم يردّدون ما يصف ، وفي أيديهم سيوف او خناجر أو عصي او ماشابه ذلك ، وقد كان هذا النوع من الاحتشاد فاشياً في دمشق ، ثم قلّ وبُدّل بنوع آخر وهو المظاهرة .

ومن معاني العُراضة في اللغة : الهدية وما يحمل الى الأهل وما يعرّضه المائر أي يطعمه من الميرة ، وجاء في الأغاني في كلام لصاحبه على ابن هرمة ان السري أمر له بسبعمائة دينار في قضاء دينه ومائة دينار يتجهز بها ومائة دينار يعرض بها أهله ، وقد فسر صاحب الأغاني قوله : يعرض بها أهله على هذا الوجه : يهدي لهم بها هدية ، والعراضة الهدية ، قال الفرزدق يهجو هشام بن عبد الملك :

كانت عراضتك التي عرضتنا يوم المدينة زمكة وسعالا

فهنا قد ضاعت النسبة بين العَراضة العامية ، بفتح العين ، وبين العُراضة اللغوية بضمها ، واتسع مجال التأويل فهل أصل هذه العراضات الدمشقية اجتماع فريق من الناس لتقديم هدية في عرس أو ماشاكل ذلك ؟

* * *

هذا آخر ما أحببت أن استشهد به من بقايا الفصاح ، على كثرة ما عثرت عليه من هذه البقايا ، ورغبتي في جمع هذه المواد التنبيه على قوة حياتها ، فالكلمات على نحو ماقال « اناتول فرانس » انما هي أفكار ، ولاسبيل الى الاصابة في الحكم الا بالتمكن من النحو والمفردات الصحيحة ، والشعب الأول في العالم هو الشعب الذي يملك أحسن الأصول في النحو وتنسيق اللفظ ، فقد يقع في أغلب الحالات ان الرجال يتناحرون بسبب كلمات لا يدركون معانيها ، ولو فهم بعضهم كلام بعض لتعانقوا ولا شيء يعمل على رقي العقل البشري مثل معجم يضيء ظلمة كل شيء !

شفيق جبري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net